المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب جديد بهذا الاسم ، لا يغني أحدهما إذا غلب الثاني ، ولا يرتفع الأديب إلى القروة العليا في الأدب إلا باجتماعهما له

وقد كان كبار شعراء الانجليزية — كشكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون — يجمعون إلى خصب شعورهم بصيرة باللغة بعيدة ومقدرة على التصرف بمفرداتها وتراكيبها تصرفاً يبرز معانيهم في أحسن صورة ، أما توماس هاردي فقصر به عن بلوغ ذروتهم — رغم خصوبة شاعريته — إعواز الرصانة في أسلوب شعره الذي هو أشبه بالنثر الجيد ، وقصوره عن أولئك الفحول في البصر باللغة ومعرفة كيفية التصرف في ألفاظها وتعابيرها ، ومن ثم ينزله النقاد الانجليز للمرتبة الثانية بين شعرائهم

وقد كان للمعنى — المعنى الصادق الجدير بالتعبير عنه — المنزلة الأولى عند كبار الأدباء الانجليز دائماً ، وكان الأسلوب يحل عندهم في المحل الثاني ، ويأتي لأداء المعنى لا ليحل محله أو يتحيفه ، ولم يشتد الولع بالأسلوب إلى حد الاغراق إلا في عهد قصير في القرن الثامن عشر ما يزال يُعدّ أحط أزمان الشعر الانجليزي ، وسرعان ما تحرر الأدب من قيوده ، وعاد كما كان تعبيراً صحيحاً عن الشعور الصادق في أسلوب طبيعي مستقيم

أما الأدب العربي فطغى الأسلوب على جانب كبير منه في مختلف عصوره وتحيف المعنى أو ألغاه : ففي الأدب العربي شعر ونثر كثيران يروع أسلوبهما والمعنى فيهما ضئيل هزيل أو مصطنع كاذب غير معبر عن شعور صحيح أو تفكير سليم ، لأن الأديب قدّم براعة الأسلوب على التعبير عن حقيقة خواطره أو الاتيان بمعنى جديد يستحق عناء الانشاء

لقد كان العرب شعراء السليقة لا شك ، يُجِلّون الشعر أو الأدب عامة مكانة عالية ويحتفون به ويطربون له ، حتى أوشك أن يكون فنّهم الجميل الوحيد ، ولكن من العجيب بل من المؤسف أن الأدب العربي أحاطت به ظروف أزاغت نظرة كثير من أدبائه إلى الأدب أو وظيفته أو رسالته ، وقد أشرتُ في كلمات سابقة إلى بعض تلك الظروف ، ومنها دخول الأعاجم في اللسان العربي ، واعتزال الأدباء مجتمعهم واعتمادهم على صلات الكبراء ، وتغلّب نزعة التقليد على نزعة التطور في الأدب العربي ، واعتزاله غيره من الآداب القديمة والمعاصرة له إلى حد كبير

زاغت نظرة كثير من الأدباء إلى الأدب فحسبوه صنعة لا فناً جميلاً ، وظنوا الغرض منه إظهار البراعة لا التعبير عن الشعور والفكر الصادقين ، فجاءت آثارهم صناعة وبراعة خالية من المعاني الصادقة العالية والشعور العميق الصحيح : فالمقامات ورسائل الدواوين وأشعار التنسيب الاستهلالي والمدح والهجاء المأجورين والفخر الأجوف ، والمنثورُ والمنظومُ المرصعان بغرائب السجع والجناس والزِّواج والمقابلة وهلم جراً ، كل هذه آثار أدبية قليلة الحظ من الصدق والحياة وعمق الفكرة ، وإن تكن لها مزية فهي مزية الأسلوب إن كان مُنشئها بارعاً

وهناك عدا ذلك آثار أدبية لم يقدّم أصحابها الأسلوب على المعنى ، ولكن المعنى فيها تافه بذاته غير ذي بال . فالأدب الرفيع هو ما تحدّث عن مشاعر النفس العميقة وتأثراتها بأسباب الحياة ، ومشاهد الكون ، وتناول حياة الانسانية على الاطلاق ناظراً في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، معبراً عن آمالها وآلامها ، فأين من هذا خمريات أبي نواس ومقذعات جرير والفرزدق ومجونيات بشار ؟ لقد كان هؤلاء شعراء صادق المعاني في كثير مما قالوا رائعي الديباجة ، ولكن شعرهم لتفاهة المواضيع التي سخروه فيها أو لحطتها لا يرتفع إلى الطراز الأول من الشعر الانساني ، ولا تبقى له قيمة إذا جردته من أسلوبه الجزل

فاذا نظرت إلى كثير من منتجات أولئك الأدباء طالباً تلك النظرة الانسانية العامة ، وراغباً في شيء من الثقافة تضيفه إلى ما عندك ، ومنتظراً أن ترى نفسية الأديب وشخصيته مرتسمتين في آثاره لم تصب من ذلك شيئاً ، ولم تزدد علماً من دواوين وكتب كاملة بغير فائدة لغوية أو براعة لفظية أو تعبير جديد عن معنى متداول قديم

فاذا ألغيت من آداب اللغة كل الآثار التي لا تتعدى مزيتُها أسلوبَها ، والتي هزلت معانيها أو كذبت أو لم تزد على التمحل والمبالغة والتخريج والاغراب ، لم يبق لك إلا القليل من الأدب السامي الذي اجتمعت له مزايا المعنى القيم والموضوع المهم المفيد والأسلوب المحكم ، كأشعار الفحول في الحكمة والوصف الطبيعي والتعبير الصادق عن الوجدان والنسيب الحقيق والحماسة وما إلى ذلك ، وتلك دون غيرها هي الجديرة أن تسمى آداباً

وهذه الآثار — وأحسن نماذجها حكمة المتنبي وأوصاف ابن الرومي وأبي تمام والبحتري ونظرات المعري ووجدانيات الشريف الرضي ، ورسائل الجاحظ — هي خلاصة الثقافة التي يخرج بها الدارس من الأدب العربي ، وهذا المحصول الثقافي هو بلا شك دون المحصول الذي يظفر به مطالع الأدب الانجليزي ، الذي أوسع أقطابُه النفس الانسانية والحياة البشرية والمحاسن الطبيعية درساً ووصفاً ومناجاة

لقد أشرت إلى الظروف التي أحاطت بالأدب العربي فأدخلت فيه كثيراً من زيف الصنعة وكاذب القول وغلّبتْ الأسلوب في كثير منه على المعنى ، ولعل طبيعة اللغة العربية قد ساعدت على هذا التغليب ، وأمدَّت لمن انصرفوا بكلياتهم إلى الأسلوب وجمعت حولهم المستجيدين : لما للغة العربية من بلاغة أصيلة ، وموسيقى نغمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في الآذان والنفوس من روعة وفتنة ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة واتساق بحيث يستطيع التمكن من كل هذا أن يستولى على الألباب دون أن يبتدع في المعنى ، كما يَصرِفك جمال اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنَّى به أحياناً

وقد زالت اليوم الظروف التي لابست الأدب العربي قديماً ، فهبطت بمعاني الكثير منه وأدخلت عليه الزيف والصنعة وزيغ النظرة إلى الغرض منه ، وما زالت للغة سمتها ومقدرتها وجمالها وموسيقاها ، فاذا اجتمع صدقُ النظرة إلى الأدب ومطاوعةُ أداته وهي اللغة ، إذا قرنت المعاني المبتكرة السامية إلى اللغة الفنية المساعدة ، فما أجدر الأدب العربي أن يتبوأ منزلة عالية بين الآداب ، وما أقوى الأمل في أن يفوق مستقبله كلّ ماعرف ماضيه

فخري أبو السعود

من تراثنا العلمي

٢ ـ كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

« ابواب الكتاب »

المقـدّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له في كل لطيف من خلقه مُعجز يُتفكَّر فيه ، وخفيٌّ من صُنْعه يُتنبَّه به عليه ، ونِعَم تقتضي مواصلة حمده ، ومِنَنٌ تحثُّ على متابعة شكره . والذي ميّز كل نوع من حيوانٍ خلقه على حِدَته ، وأبانه بشكله وصورته ، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومُرَكَّبه ، ويسّره للأمر الذي خُلق له ، ويُؤدّيه إلى مصلحته ، وقوام جسمه . وجعلنا من أشرف ذلك كلّه نوعاً ، وأتمّه معرفة ، وجمع فينا بالقوّة ما فرّقه في تلك الأصناف بالآلة ، فليس منها شيء مخصوص بحالٍ له فيها مصلحة إلا ونحن قادرون على مثلها ؛ كذوات الأوبار التي جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا تعدمها ، فانا بفضل حيلة العقل نستعمل مثل ذلك إذا احتجنا إليه ، ونفارقه إذا استغنينا عنه ؛ وكذوات الحدّ والشوكة من صدف أو مخلب ، فان لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة ؛ وكذوات الحافر والظلف فان لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتّقي أذى الأرض به . وجعل لنا خدماً وأعواناً ، وزينة وجمالاً ، وأكلاً وأقواتاً ؛ فبعض نمتطيه ، وبعض نقتنيه ، وبعض نتغذيه . وأحلّ لنا صيد البرّ والبحر والهواء ؛ نقتنص الوحش من كناسها ، ونحطّها من معاقلها ، ونستنزل الطير من الهواء ، ونستخرج الحوت من الماء . ولم يكلنا في ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عضّدنا عليه ، وسهّل السبيل إليه ، بأن خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصاً أغراها بغيرها من سائر أجناسها ، ووصلها من آلة الخِلْقة وسلاح البُنية ،